

- 6- الاستفادة من التجارب العالمية فيما يخص دور الجمعيات الخيرية في ترقية التنمية الوطنية والوقف.
- 7- اقتراح موضوع استراتيجية الزكاة في تنمية المشروع الاجتماعي والاقتصادي ،هو عنوان بحث فرقة البحث تحت اشراف أ/ قاسمى الحسنى.
- 8- ترقية اليوم الدراسى إلى ملتقى دولى حول التضامن في الجزائر "الزكاة والوقف نموذجا"
- 9- تسجيل هذا الموضوع في مشروع PNR لسنة 2010.

الاقتصاد التضامني أثناء الاحتلال الفرنسي

د. جيلالي صاري

أستاذ التعليم العالى، قسم علم الاجتماع، جامعة

الجزائر 02 بوزريعة

تبقى الشهادات والمعطيات المتعددة ،التي غالبا تتوافق و تلفت النظر إلى عكس ما كان يتوقعه الملاحظون إبان الاحتلال الفرنسي، إذ أنهم قد فوجئوا بأول وهلة بتعميم التعليم، قراءة وكتابة، كما أنهم سرعان

ما اكتشفوا ظاهرة أخرى بعد سنوات محدودة لا تزيد عن 10 إلى 15 سنة، ظاهرة تدهور التعليم المعمم، في المدن وخارجها، غربا وشرقا...

تلك هي الإشكالية التي نحاول معالجتها معتمدين بذلك على وثائق مختلفة شاهدة ، و فيما يخص القسم الثاني، والأهم فيه أن نركز أكثر على مخلفاته و ما انجر عن التدهور أبان الاحتلال الفرنسي و ما كاد أن يقضي على مقومات المجتمع الجزائري وحتى على هويته، إذ غاية كل استيطان، ألا وهي استئلال شعوب شعوبا أخرى.

وعليه فإن القسم الثاني يلقي الأضواء على التعامل والمواكبة مع ظروف تلك الحقبة وأنماط الضغوطات المطبقة ، مستعينين بذلك بتجارب معينة، تبين طرق الاقتصاد التضامني وخصائصه ومستوياته المتعامل بها أنذاك في معالجة المشاكل المطروحة.

ويتمحور التحليل كالتالي:

- الشهادات والمعطيات لتوفر التعليم
- الشهادات والمعطيات التضامن
- تواصل التظاهرات التضامنية ومعاصرتها

أولاً: الشهادات والمعطيات لتوفر التعليم

1) كثيرة هي الشهادات المختلفة والمعطيات التي تؤكد كل التأكيد توفر التعليم في بداية الاحتلال الفرنسي، خاصة منها التصريحات المتتابعة و ما ذكره الجنرال Valze: "تطبيقاً كل العرب يعرفون القراءة (1834). وهناك شهادات لعدد كبير من الضباط الغزاة لتعميم التعليم

الابتدائي، إذ أن الخبير إسماعيل اربان هو الآخر ذكر: "كان التعليم الابتدائي (في 1830) أكثر انتشارًا مما يعتقد عموماً" والمعدل للذكور الذين يقرؤون ويكتبون كان بالأقل يساوي معدل أريافنا (حوالي سنة 1845) بينما هناك 2 إلى 3000 من الشبان الذي يزاولون في كل إقليم التعليم الثانوي، بالإضافة إلى 600 إلى 800 يواصلون دراسات عليمة وقانونية وأصولية"، ونفس المصدر يضيف أنه في سنة 1837 كان هناك 1300 إلى 1400 طفل ممتدرس بقسنطينة في 86 مدرسة قرآنية و 3000 بالأقاليم... إلا أن هذا العدد ضعيف بالنظر إلى وجود 300 مدرسة¹⁹...

(2) التدهور والسريع والمعمم

فجأة، تعرضت الوضعية إلى حالة التدهور وعمت الانتشار عكس ما عرفته الجزائر قبيل العقدين للاحتلال، إنه لجيل كامل قد حرم من التعليم القرآني في مدينة قسنطينة انخفض التعليم من 600 إلى 6 و عدد المدارس الابتدائية من 86 إلى 30 مدرسة.

أسباب ذلك واضحة كما حلها في سنة 1847 Alexis de Tocq Veville: "لقد استولينا على الأموال (بيت المال) وأهملنا تلك المدارس، وحولنا إطفاء الأنوار (المعرفة)... وهكذا قد تسلينا في تعميم الجهل للمجتمع المسلم والتي... أصبحت أكثر بربرية مما كانت عليه قبل أن نعرفنا به (A.Tocqueville (1962-III:323)، ونظرا إلى مثل

¹⁹ هذه المعطيات للمؤرخ Charles Robert Ageron (1868, I: 316,317)، وهو مصدر ذو

أهمية كبرى لا غنى عنه، ويضاف إلى هذا (Yvonne Turin (1971).

هذه الدعايات فإنّ الضباط وعلى رأسهم Bugeaud ظنوا و بلغهم أنّ يفتحوا مدرسة أفضل مما أن يجندوا فيلقا لغزو (بهدم) البلاد"

تضامن أثناء الكارثة الديمغرافية أثناء 1867-1868، أنظر جيلالي صاري: الكارثة الديمغرافية 1867-1867- الجزائر، طبعة خاصة لوزارة المجاهدين، و ANEP - 2005، 436 ص.

ثانيا: الشهادات والمعطيات للتضامن

1) وفقا للمبادئ والتعاليم الدين الحنيف النى أوصت في جماتها على التآزر والتضامن بين الأفراد والجماعات ، هناك عدّة معطيات أوضحت ذلك وتجسدت في الزمان والمكان بدون انقطاع وإن ظلّت التحاليل قليلة و نادرة في عمومها.

وفي هذا المجال لا غنى عن ذلك الزمن الذي يمثل حقوله التضامنية المسجدة ،حيث يوجد بجوار المسجد الكبير بتلمسان، وبالأخص درب المسمى بصاحبه ألا وهو درب سيد احمد بن الحسن الغماري المتوفي ليلة 12 شوال 1870 الموافق لـ 13 أفريل 1470). تلك الشخصية التي أوهبت حياتها للعبادة ومدت المعونة للفقراء والمعوزين... فاصبحت دويرته تستقبل هؤلاء خلال قرون إلى قبيل فترة الاستعمار. و ما أكدت عليه شهادة محمد باغلي الباحث الواعي: بقلوب الرحمة أي ما يعرف به خارج الوطن بـ " les restaurants du coeur " ، إلا أن ذلك يبقى رمزاً فقط وكيف ذلك يا ترى؟

(2) القضاء على ذلك

نفس الأسباب السابقة الذكر قضت على أعمال جليلة، الأعمال التضامنية والخيرية بعدما ضمت السلطات الاستعمارية أموال بيت المال إليه، وبعدها استولت على الأراضي المحبوسة والأوقاف وخصصتها لمشاريعها، بينما فرضت على السكان ضرائب مرتفعة، والمثال التالي يوضح ذلك كل التوضيح، هناك ضرائب خُصت فوائده لبناء مستشفيات والنفقة عليها كما أوضح ذلك (Collin N, 1898:103-110):

في كل سنة تدفع الأهالي ما قيمته تبلغ 3 ملايين فرنك لحاجيات المستشفيات التي هي من المفروض مفتوحة للجميع، أنه في سنة 1890 لم يستفد منها إلا 12% من السكان الجزائريين فقط وعددهم 6477 مقابل 48805 للسكان الأوروبيين.

ذلك هو المصير الذي فرضه النظام الاستعماري، وهل مثل هذه الوضعية لا تتبع بسلوكات وأنشطة خدمة للحفاظ على القيم والتعاليم الإسلامية؟ أليس هناك مواقف لرفع التحديات وإن كانت خطيرة جدا.

ثالثا: مواصلة التظاهرات التضامنية ومعاصرتها:

إلى جانب مواصلة التظاهرات التضامنية في أشكالها التقليدية المتطورة كما هو الأمر بالنسبة للزوايا والمدارس القرآنية، وكلها مدعمة من طرف العموم والخواص، سرعان ما ظهرت أشكال أخرى أخذت بعين الاعتبار الطرق الحديثة والأكثر نجاعة وصوابا مثل الأندية والتي لعبت

الدور الهام على كلا المستويين: الاجتماعي والثقافي معًا، وبهذا الصدد نعتمد على مثل تلمسان:

نظرا إلى تاريخها المجيد والمتمثل في تواجد 80% من التراث المعماري للقصر الجزائري و ظهور مثقفين واعيين، فقد تأسست أندية من أجل معالجة المشاكل المطروحة على الصعيدين الثقافي والاجتماعي بأفضل الوسائل.

تأسيس النوادي

بعد نشأة **نادي الشبان الجزائري** سنة 1907 (Rh. Merzouk,) 50:203) فقد تأسست نوادي أخرى ابتداء من سنة 1920، كما هو الشأن **للنادي الإسلامي** من طرف السيد محمد مرزوق (1884-1939)، وهو من سلالة المزراق الذين لعبوا دور كبير في تاريخ المدينة، وهكذا تواصلت في مقر هذا النادي إلقاء دروسا في اللّغة العربية وسرعان ما أصبح المقر ملتقى المثقفين الناطقين باللّغتين.

ثم تأسست نوادي أخرى ومنها **نادي السعادة** فأصبح مقرا للمعرفة والتكوين والترويج وفي تقام العروض والأفكار للنقاش، وفيه انعقد مؤتمر طلبة شمال إفريقيا. كما عرضت في المقر أنشطة ثقافية متنوعة ومنها بالأخص مسرحية: فتح الأندلس والتي حققت نجاحا باهرا، كما أنه في نفس المقر نُظّم الأسبوع التضامني مع فلسطين في سنة 1937، وكان متبوعا بجمع التبرعات المالية والتي أرسلت بواسطة Le Crédit

Lyonnais، كما أحدث مجلة الرسالة، وهي لسان حال الجامع الأزهر
(Kh. Merzouk, 2003:54.)

الجمعية الخيرية السنوية

تأسست هذه الجمعية سنة 1924 واعتمدت رسميا في غرة جانفي
1925، إلا أنها كانت تتشط منذ بداية القرن من أجل مد يد المعونة
للإسساء والعائلات الفقيرة أثناء المحن الصعبة، أثناء تشييع الجنائز وذلك
بتمويل الحاجيات، وكذا تمويل مشاريع أخرى من أجل محاربة الفقر
وغيرها ... (أنظر الشهادة التابعة).

ومن أهم ما حققته هذه الجمعية هو ربط الصلة بين المحافظين
وممثلين النهضة حينما وصل الشيخ البشير الإبراهيمي إلى تلمسان
سنة 1932 واستقر بها لسنوات.

معطيات خاصة ببيت المال، وفق ما نصت عليه وثيقة أرشيف
ايكس بوفونس بدون تاريخ:

Précieuses indications sur le rôle de **Beït-El-Mal**,
témoigne d'une haute importance pour l'analyse de
l'histoire socio-économique et démographique de
l'Algérie

Conformément à l'un des règlements du
gouvernement turc, on a constitué dans cette régence
une court dont le chef turc est investi du titre de *beit-el-
mal*. Ce chef est secondé par un cadî, deux notaires,
des greffiers et des teneurs de registres.

Cette cour est chargée de surveiller les successions de toutes les personnes qui meurent. Les parents doivent faire leur déclaration auprès d'elle. C'est d'après les ordres du chef de cette cour que le mort peut être conduit au lieu de sépulture. Elle constate les droits des héritiers; s'ils sont absents, le cadí spécial et un des supérieurs nomment d'office un procureur pour les représenter, et des tuteurs sont nommés pour représenter les mineurs. S'il existe un testament, on exécute ses dispositions après qu'il a été enregistré et reconnu valide. C'est que l'on donne ordre de faire conduire un corbillard le corps du mort jusqu'à sa dernière demeure, et que les notaires se présentent dans l'habitation du défunt pour dresser un inventaire de tous les objets qui se trouvent chez lui. Les objets de valeur, qui pourraient s'égarer, sont transportés dans un lieu sûr, jusqu'à ce que les héritiers ou leurs ayants de cause se soient réunis; et si le mort est étranger, inconnu, ou bien si ses parents sont absents, cette cour les représente; elle fait vendre tout ce qui concerne la succession à une enchère public ad hoc, et la valeur est conservée comme un dépôt sacré après avoir prélevé les frais qui ne doivent pas dépasser sept pour cent pour les honoraires du greffier, du notaire, les frais de vente publique, etc. la somme est déposée dans la caisse publique, et le chiffre en est porté dans deux ou trois registres. Personne enfin n'en peut disposer qu'en vertu d'une autorisation légale.

Si la personne décédée ne laisse aucun héritier présent ou absent, après les frais que son enterrement a causés, et après avoir payé ces dettes, s'il en a, on

remplit ses dernières volontés, si elles n'excèdent pas la portion dont les lois lui permettent de disposer; car il ne peut disposer que de tiers de ses biens, et cela quand même il laisserait des parents, les deux autres tiers appartiennent aux domaines nationaux. Les fonds recueillis par cette caisse publique sont employés, savoir: à l'enterrement des pauvres et des étrangers sans asile, au soulagement des indigents, au traitement des professeurs publics qui consacrent leur temps à éclairer la société et à répandre les connaissances au milieu d'elle. Ils sont destinés à soutenir les auteurs et les étudiants sans fortune, etc.

Il est des Turcs tellement attachés à la régence, que beaucoup de ceux-ci ne se marient pas exprès pour laisser leur fortune à la caisse de beït-el-mal. Voilà pourquoi la recette de cette caisse était si considérable de leur temps.

Aussitôt qu'il y avait dans cette caisse 50 000 F, cette somme était versée dans celle du Trésor public, à cause de l'énorme dépense de l'Etat et des faibles revenus. Cet usage a été conservé jusqu'au moment de l'invasion des Français.

Les règlements de cet établissement de beït-el-mal sont basés sur les principes fondamentaux de nos lois, et quelquefois il est fait emprunts d'une caisse à l'autre, sans que l'ordre établi soit en rien dérangé.

A l'époque de la peste, cette administration de beït-el-mal avait beaucoup plus d'activité qu'aucune autre. Elle seule constatait le nombre des décès et évitait la confusion qui aurait pu provenir d'une grande

mortalité; elle seule aussi reconnaissait les successions vacantes, soignait les héritages, etc.

Lors de l'invitation des Français, ils s'emparèrent de cette caisse de beïi-el-mal qui contenait des sommes considérables; une partie provenant de dépôts faits par les particuliers, fut enlevé en même temps: aussi -a-ton trouvé dans cette caisse un grand déficit.

Par suite de cette invasion, et depuis l'expulsion des riches, les revenus de beït-el-mal ont beaucoup diminué. Comment cette administration pourrait-elle espérer de toucher ses revenus accoutumés, puisque la succession de chaque personne qui meurt à présent, qu'elle laisse des héritiers ou non, suffit à peine pour couvrir les frais de son enterrement? Je crois même que celui qui occupe actuellement la charge de chef de beït-el-ma, et qui est un Algérien, fournit des sommes considérables de ses propres derniers, pour l'enterrement des pauvres, à titre d'avance pour la caisse, comme ses prédécesseurs avaient l'habitude de le faire, à croire que ce chef agit la seul intention.

شهادة محمد تريكي،

أول صيدلي جزائري بتلمسان

إن السيد تريكي قد بذل جهده لتخفيف حدّة البؤس، إذ ترأس طويلا الجمعية الخيرية، بالإضافة إلى اهتماماته بالهلال الأحمر بتلمسان، في زمن كانت المدينة تأوي 40000 نسمة وهم يعانون دوما الجوع نظراً إلى معاناتهم وهم يشتغلون أزمة الصناعة التقليدية وبالأرياف متواصلة بدون

انقطاع، وإذا كان البؤس متواجداً إلا أنه لا يشعر به الأجنبي إذ لكل عمة ولكل قريب من ينفق وقدم المعونة والمتمثلة في تقديم قُفّة صغيرة، وعموماً كان مستوى أغلبية العائلات يقترب من عتبة الفقراء .. بحيث أن النذر مستمرة جداً ولا يستثنى منها أحد (...).

وبخصوص الماعونات، كانت توزع مباشرة وبدون أي إشهار إطلاقاً، ولتحقيق ذلك فقد قسمت المدينة إلى 3 أقسام، والأولوية تعود إلى الأرامل واليتامى، والمرضى والملازمين الفراش دوماً.

وهكذا استفادت 12000 عائلة وأهم الموارد المالية تحققت بواسطة الصدقات التي تجمع يوم الجمعة أثناء خروج المصلين من المساجد. والمشاهد على ذلك أن يظهروا في زحمة متكونة من متسولين ومؤمنين، وأما التبرعات والصدقات فقد قام بها تجار المدينة.

بالباشير جلول Le quotidien d'Oran، 2004/10/13، ص.4.

سيدي أحمد بن الحسن الغماري

من أهل ندرومة سكن تلمسان وقضى حياته بها في القراءة والعبادة وقد حج مرتين، وكان من جملة تلامذه الشيخ أحمد زروق، له كرامات ويحكى عنه خوارق عديدة، كان يقوم بالتهجد ليلاً بعشرين حزياً شهد له

بالكرامات في مساجد تلمسان في الجامع الكبير، في جامع زاوية سيدي الحلوي، في جامع الخراطين، في جامع الحلفويين،

كان يتردد لصلاة الجمعة بين الحناية وندرومة وهنين ونحوها من المدن المجاورة لتلمسان. أقام زمنا بندرومة وظهرت علي يده كرامات بها، توفي بالجامع الكبير بتلمسان في فحر يوم 12 شوال عام 874 هجرية، الموافق لـ 13 أبريل 1470 م ودُفن بخلوته شرقي الجامع الكبير بتلمسان.

من أكابر أولياء الله تعالى المولعين لعبادته وتلاوة آياته في أثناء الليل وأطراف النهار، مع الصبر على ملازمة الخلويات وترك جميع الشهوات..

ابن مريم

كان هذه الأبيات مرقومة على اللوح داخل باب الدخول إلى خلوته

سطعت فضائل دار المقام كمثل ما

سطع الصباح أو استتار الفرقد

فإذا اعترتك ملمة قد واؤها

شمس السيادة والمعارف أحمد

جمعية أحباب الكتاب

مع مرور الزمن الطويل منذ 1927 -سنة تأسيس تلك الجمعية- تبدو على نشأتها كمعلم بل أنها حينئذ أسطورة، خاصة حينما نعلم أنها أنشأت انطلاقاً من جمع 10 كتب وميزانية منعدمة تماماً، وما هي إلا سنوات وإذا بمكتبة تجمع كل مساء عدد وافر من القراء جلهم الصغار والشبية، وإذا بالمكتبة مكتضة، نظراً إلى الأعداد الهامة من الكتب المتوفرة والمقدرة في بداية الخمسينات بأكثر من 4000 كتاب بالفرنسية والعربية، وسرعان ما أصبحت تقدم دروساً في الآلة الرنانة والكتابة الفورية sténodactylo، وكذا تقييم مسرحيات، وهي تستقبل رجالات والأدب، كما أنها مؤلت عدداً لا بأس به من الطلاب خارج الوطن وبعضهم يزلون إلى الآن على قيد الحياة وهم يمارسون أنشطة سامية...

بناء أكبر مدرسة تابعة لجمعية العلماء المسلمين: دار الحديث

لا جدال إطلاقاً من هذا لأنه وارد من صاحب الأطروحة المتبعة لتلك الجمعية وهو السيد علي مراد (248: 1967) وما يلفت النظر في أن واحد و ربما يطرح بعض الاسئلة عن الظروف التي بينت الذين ساهموا فيها وخاصة ان المدينة تعاني أزمة لا مثيل لها قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية، ومن موقع هذا الإنجاز الذي صممه المهندس المعماري الشهير، ألا وهو عبد الرحمن بوشامة (1906-1984) وهو نفس المهندس الذي يرجع له الفضل في تحقيق مسجد حي بولوغين (Sainte Eugène) بالعاصمة بعد الحرب العالمية الثانية.

دار الحديث :

وعليه لقد أبينّا إلّا أن نتعمق في عقد شراء أرضية دار الحديث، إذ أبرم هذا العقد في سنة 1936 وبذكر عدد الذين شاركوا في شراء أرضيته المتواجدة بالغرب من ثانوية de slave التي كانت أغلبية التلاميذ بها من الأوروبيين وهناك عدد لا بأس به من المذكورين في العقد من عمال الحرف الصناعية التقليدية وغيرهم من الذين يلفتون النظر، بالإضافة إلى أعيان المدينة.

هذا وبعد سنة فقط من إبرام هذا العقد حتى تمّ بناء دار الحديث وقد دُشنت يوم 27-09-1937، و حضرت وفود كثيرة، وقد استغل هذه الفرصة الشاعر آل خليفة (1904-1979)، لنظم قصيدة خلدت ذلك الحفل البهيج.

شهادة حرم الرئيس الراحل فرحات عباس:

تعدّ شهادات هامة جدًا تكاد أن تُنسى لولا دراسة حديثة نُشرت إلى نهاية القرن العشرين (B.Stora, Z.Daoaud, 1995.129)، وهي الدراسة الخاصة بالرئيس الراحل فرحات عباس (1985-1989)، وجاءت الشهادة عفويا من طرف حرمه Marcelle Stoelel التي صرحت: "في المساء لم يبقى أية علبة من الدواء بالصيدلية، فكان يوزع الكثير، فكان يقدم لهذا ما يعفيه للرجوع بواسطة الحافلة، وللاّخر ما يمكنه لقوت عائلته، وكان رحيمًا، وحتى الإحسان بذاته".

والمؤلفان لم يكتفيا بهذه الشهادات لوحدهما، بل واصلوا البحث بمستودع الأرشيف بقسنطينة، فوجدا الوثائق التي تتضمن ما كان يدفع من طرف الصيدلي إلى الجمعيات الخيرية، خاصة أثناء فترة 1944-1945، أي في أصعب وأخطر سنوات الحرب العالمية الثانية، ومثل هذه الجمعية المذكورة نجد الجمعية الخيرية للتضامن الاجتماعي "إعانة ونجدة المساكين" و "الاتحاد النسائي الجزائريات" و "جمعية محاربي الحرية".

وعليه، فإنّ الاقتصاد التضامني قد تطور وتعامل مع المعاصرة في الصالح العام والخاصة وهو يكتسي عدّة أوجه خدمة للتغلب على القضايا من جهة وللسير قدما من جهة أخرى.

وأما النتائج، لا نستطيع تحديدها في هذا الإطار دون ذكر شهادتين اضافيتين إلى ما سبق ذكره ، فالأولى تعود إلى إحدى التلميذات وهي زهور كاهية الثانية: "كنت أزاول الدروس بدار الحديث خاصة وأن المعلمين كانوا حارسين ليعلموننا الكتابة والقراءة، ومن جملة "أناشيد تلك الفترة التي غذتنا الروح الوطنية وحب الوطن مثل: من جبالنا، موطني، شباب الجزائر، حيو شمال افريقيا، وهذه الأخيرة تخليدا لشهداء 8 ماي 1945 (Kazie Tani, 2003).

وأما الشهادة الثانية فهو لذلك التلميذ الذي كان يسكن حيا بعيدا وهو الآن طبيب مختص بأمراض القلب خير الدين مراد بوديا (2009): أن القليل من العربية الذي تحصلت عليها يعود إلى دار الحديث".

الخلاصة

تمثل هذه المسيرة والشاقة خلال 130 سنة و ما أكثر دلائلها، إذ رغم ما عاناه المجتمع الجزائري من جوع وطغيان ومصادرة أن ظهرت مؤسسات تضامنية ممثلة في غدى العقل وأثبات القيم والمبادئ السامية التي نص عليها كتاب الله والسنة الشريفة، إلا أنّ الإرادة القوية والتمسك بالقيم الثقافية النيرة استطاع الجزائريون التكيف مع الواقع وأن يتقدموا بوسائل تضامنية ثابتة نابعة من قيمنا وأخلاقنا الحميدة، هي المجهودات التضامنية مع الأفراد المحتاجة و مع العائلات الفقيرة المعوزة، والسعي للتدريس ونشر المعرفة، وحتى أنها سعت إلى التعليم العالي خارج الوطن. تجسدت تلك الأسس القاعدية المتينة بفضل الوعي وحرمة الأعيان.

Ce n'est pas un acte ordinaire ni consultable au siège de l'APC concernée. C'est l'acte d'acquisition du terrain d'assiette bien conservé au Service des Hypothèques à Tlemcen et datant de 1936, une des dates marquantes de l'histoire contemporaine, tant au niveau de la ville qu'au niveau de l'ensemble du territoire algérien. L'analyse approfondie du document en question autorise les trois observations suivantes:

- la signification profonde du site,
- la détermination inébranlable de la population tlemcénienne.

L'étape ultime d'identification et de réaffirmation
d'une longue marche.

La signification profonde du site

Quel qu'il soit, un site au sein d'une vieille ville n'est point neutre, principalement dans le cas présent. Il en est ainsi aussi bien de la situation géographique, des limites et des origines successives du terrain. C'est l'expression d'une lutte acharnée entre les deux sociétés d'alors.

En effet, le terrain en question occupe une position hautement stratégique puisqu'il se situe directement sur la ligne de front, la ligne séparant et opposant les deux communautés antagonistes. C'est ainsi que l'une des deux façades de la future Dar El Hadith donne sur l'un La ville européenne... et la ville «indigène» à l'est. Or même si Dar El Hadith n'occupe que la partie basse de l'axe, elle s'élèvera et se dressera face au principale établissement scolaire, le Collège municipal, le futur lycée à la majorité écrasante d'élèves européens.. Telle est donc bien cette position bien déterminée de la ville intra-muros, mais extra-muros, pour ce qui de la ville zyanide et post-zyanide. En conséquence extension faite par et pour la colonisation a été récupérée et réappropriée soiennellement comme on le verra. En fait, la réappropriation revêt également d'autres significations. Qu'on en juge par les origines des trois autres mitoyens.

Si la deuxième façade, celle de l'entrée concerne une rue, la rue l'onarta, avant tout destinée à l'artisanat, des forgerons et des menuisiers avec quelques habitations

européennes, la limite septentrionale est matérialisée par une habitation appartenant à une famille juive, celle qui vient de céder le terrain d'assiette du futur projet d'intérêt culturel et ditactique. C'est donc une double réappropriation. Mais en fait pour le vendeur, il s'agit bien d'un repli stratégique. D'autant plus stratégique qu'il concerne d'authentiques représentants de la communauté juive, enrichis par les spéculations commerciales et les transactions commerciales, à l'origine de leur ascension et de leur promotion rapide ainsi que leur intégration jusqu'au sien de la vie.. parisienne²⁰ à la pacte assimilation multiforme comme le précise bien des différents actes de transmission de la propriété remontant jusqu'à la fin du XIX^{ème} siècle

Un symbole de résistance

Ce n'est pas un acte ordinaire, ni consultable au siège de l'APC concernée. C'est l'acte d'acquisition du terrain d'assiette bien conservé au service des Hypothèque à Tlemcen et datant de 1936, une des dates marquantes de l'histoire contemporaine, tant au niveau de la ville qu'au niveau de l'ensemble du territoire algérien. L'analyse approfondie du document en question autorise les trois observations suivantes:

La signification profonde du site, la détermination inébranlable de l'ultime d'identification et de réaffirmation d'une longue marche.

La signification profonde du site

²⁰ C'est le cas de trois familles toutes appartenant à la vieille souche tlemcénienne résidant au cœur de Paris du second Empire, tout près de la place de l'Opéra, dès la fin du XIX^{ème} siècle et au début du XX^{ème} siècle.

Quel qu'il soit, un site au sein d'une vieille ville n'est point neutre, principalement dans le cas présent. Il en est ainsi aussi bien de la situation géographique, des limites et des origines successives du terrain. C'est l'expression d'une lutte acharnée entre les deux sociétés d'alors.

En effet, le terrain en question occupe bien une position hautement stratégique puisqu'il se situe directement sur la ligne de front, la ligne séparant et opposant les deux communautés antagonistes. C'est ainsi que l'une des deux façades de la future Dar El Hadith donne sur l'un, et la ville «indigène» à l'est. Or, même si Dar EL Hadith n'occupe que la partie basse de l'axe, elle s'élèvera et se dressera face au principal établissement scolaire, le collège municipal, le futur lycée à majorité écrasante d'élèves européens... Telle est donc bien cette position bien déterminée au sein de la ville intra-muros, mais extra-muros pour ce qui est de la ville zyanide et post-zyanide. En conséquence l'extension faite par et pour la consolation a été récupérée et réapproprié soiennellement comme on le verra. En fait, la réappropriation revêt également d'autres significations.

Qu'on juge par les origines des trois autres mitoyens.

Si la deuxième façade, celle de l'entrée concerne une rue, la rue l'onarta, avant tout destinée à l'artisanat, des forgerons et des menuisiers, avec quelques habitations européennes. La limite septentrionale est matérialisée par une habitation appartenant à une famille juive, celle qui venait de céder le terrain d'assiette au futur projet

d'intérêt culturel et didactique. C'est donc une double réappropriation. Mais en fait pour le vendeur, il s'agit bien d'un repli stratégique. D'autant plus stratégique qu'il concerne d'authentiques représentants de la communauté juive, enrichis par les spéculations commerciales et les transactions commerciales, l'origine de leur ascension et de leur intégration jusqu'au sein de la vie... parisienne²¹ à la rapide assimilation multiforme comme le précise bien les différents actes de transmissions de la propriété remontant jusqu'à la fin du XIX^{ème} siècle.

Enfin la dernière limite, celle de l'Est, elle est bien significative. Elle place le futur établissement face à un campement militaire, un vaste terrain occupé par la structure répressive, la Prison Civile.

Or pour bien assurer cette fonction vitale ou régime d'alors, il a fallu remettre en cause l'un des premiers plans d'urbanisme en annulant l'ouverture de la rue.. Bugeaud et don on ne retrouve à l'heure actuelle qu'une impasse en dessous de Dar Aicha. A partir de cette impasse, elle devait déboucher sur la rue Belle-Vue, soit près de l'ancienne place Bugeaud, l'ex Medres.

Ainsi, l'acquisition du terrain d'assiette constitue bien une enclave au cœur de la puissance militaire, commerciale et culturelle de l'autorité coloniale. C'est plus qu'un symbole.

²¹ C'est le cas de trois familles, toutes appartenant à la vieille souche telmécénienne résidant au cour de la place de l'Opéra de la fin du XIX^e siècle et au début du XX^e siècle.

La détermination inébranlable de la population dominée

Cette volonté de s'affirmer ne peut échapper à tout observateur sachant interpréter objectivement certaines clauses et données de l'acte d'acquisition. C'est ainsi qu'au lieu d'être conclu au nom de l'association Culturelle Musulmane

....

La différence n'est plus fortuite. Elle relève même bien des significations, particulièrement vis-à-vis du vendeur et de son épouse.

La longue liste des 171 prénoms et noms patronymique exprime à elle seule les différentes couches sociales, tendances, opinions et milieux de l'ancienne capitale abdelwahidite. Ce sont pratiquement toutes les familles qui sont représentées, des plus humbles aux minorités privilégiées, des plus vieilles remontant à la dynastie précitée jusqu'aux plus récentes en passant par celle de la période post Zyanide, voire celles ayant suivi l'Emir Abdekader. Il en est de même des catégories socioprofessionnelles. En effet, si une majorité apparentée au commerce se détache nettement tout en englobant une cohorte disparate et hétérogène, avec à côté également les minorités d'industriels et de professions libérales avec les premiers avocats et des instituteurs dont certains déjà en retraite, on observe aussi les représentant incontestables de l'autre côté de l'échelle sociale. Il s'agit notamment de petits artisans, des menuisiers, des cordonniers, des bouchonniers, un mécanicien... des

artisans subsistent difficilement d'avant la Seconde Guerre Mondiale. De même on trouve aussi des petits fonctionnaires, des employés de la banque, des clercs de notaires, un comptable. Faut-il souligner aussi la présence de cet officier de l'armée française, de rang capitaine, en retraite, né en 1879 est sans aucun doute naturalisé car ce grade ne peut revenir à un indigène²². Soulignons aussi la présence d'élus, de conseillers municipaux, de chevaliers et de commandants de la Légion d'Honneur.

En conséquence, aucun doute n'est permis quant à la grande authenticité de la représentativité de la population tlemcénienne dans un acte soulignant pleinement son attachement à la culture arabo-islamique. En effet, la seule exception ne concerne qu'un avocat natif de Constantine, et un second de l'Oasis de Liana, aux Zibans. Quant à la tête de liste, elle est réservée délibérément à l'un des porte-parole de l'Association des Oulémas Musulmans d'Algérie, Cheikh Bachir Brahimi un des artisans de l'acte en question et qui sera aussi le premier directeur de l'établissement projeté.

Enfin, on peut laisser échapper par cette petite minorité représentée par des minorité représentée par des mineurs, généralement des fils de parents déjà portés sur la liste. La plupart occupent à l'heure actuelle

²² Naturalisation n'est déculturation, ni encore moins assimilation, contrairement aux affirmations, des juriste du XIX^{ème} siècle, à la suite du Sénatus-consulte de 1865, relative à la naturalisation !

des postes-clefs, soit au niveau de la ville, soit au niveau de la capitale.

Or toute cette représentativité large, la plus large qui soit, est à mettre en rapport avec les données suivantes relevées dans l'acte et relatives à la clause du prix et de son acquittement. Des 125.000 F à verser, seuls 2.000 F, soit 1,5 pour cent, l'ont été effectivement au moment de la conclusion de l'acte. Rien d'autre! Aucune autre allusion n'apparaît alors que dans pareil cas, des précisions suivent et fixent les termes d'accords intervenus entre vendeurs et acquéreurs, non sans oublier les taux d'intérêt. C'est ainsi que dans ce cas nous avons relevé un taux de 10 p.c. entre coreligionnaires juifs et à propos du même terrain d'assiette, antérieurement...

En conséquence, le vendeur n'a éprouvé aucune inquiétude. Les 171 acquéreurs constituent pour lui une garantie sans précédent. N'en a-t-il pas été ainsi puisque l'engagement a été ainsi puisque l'engagement a été non seulement honoré dans les plus brefs délais, mais le projet, lui-même a été réalisé dans les meilleurs transcriptions de l'acte et l'inauguration réelle de Dar El Hadith, il n'y a que 20 mois seulement, un temps record au cours d'une si difficile période... et l'absence quasi-totale de fonds.

Telle est bien, en définitive, l'expression de cette volonté inébranlable de la réaffirmation culturelle, du refus de la domination.

L'étape ultime d'identification et de réaffirmation d'une longue marche

Sur le plan strictement local, la date de 1936 revêt une si grande importance en situant bien cette longue marche d'un siècle. C'est bien à 1836 que remonte la première occupation coloniale de Tlemcen avec une dispersion très grande de la population, en réponse aux consignes données par l'Emir Abdelkader, en plein hiver à travers les Monts de Tlemcen. Tout a été mis en oeuvre aussi par le chef de l'Etat en construction pour reprendre la ville, la suite du Traité de la Tafna en 1837... De nouveau, la ville tombe en 1842 et perd une grande partie de ses habitants. En 1845, de nouveau l'Emir chevauche au sud de la ville. Or à cette date, les détails donnés par l'Abbé Bargès, lors de sa visite, donne une idée des conséquences, particulièrement sur les plans urbanistique et culturel. Outre l'extension des ruines occasionnées par ces bouleversements, la chute du nombre de mosquées et autres lieux d'enseignement est alarmante. Les deux tiers sont perdus et il n'en reste plus qu'une vingtaine, la Grande Mosquée, l'almoravide, ayant beaucoup souffert aux bombardements de Cavaignac. Les plus illustres monuments du centre-ville, la Médersa Tachfinya, disparaîtra en 1872, alors qu'à cette date, la ville post-zyanid était dépecée, quadrillée jusqu'au cœur de ces vieux quartiers, après l'occupation des meilleurs, édifices privées par les officiers de l'armée coloniale, surtout la militarisation du Méchou; le symbole de la souveraineté de l'Algérie, l'ancienne ville gouvernementale des Béni-Zyane.

Or tout cela ne peut laisser les différents la gent tlemcénienne, survivant et diaspora, d'où cet état, ce

renouveau multiforme que l'on observe dès l'aube du 20^{ème} siècle. Durant ses années décisives, on assiste peu à peu, résolument à la renaissance de la culture algérienne, à travers des manifestation théâtrale, musicale, bibliothécaire et bien d'autres formes affirmant ou réaffirmant toute l'authenticité d'une société dominée, mais non soumise...

L'année 1931, une des dates charnières de l'histoire contemporaine de l'Algérie est bien marquée sur le plan de la ville par la création de l'Association précitée, celle qui va prendre en charge Dar El Hadith. C'est l'Association Culturelle Musulmane de Tlemcen qui voit le jour, 1^{er} septembre de cette année, c'est-à-dire l'année de la création de l'Association des Oulémas musulmans d'Algérie. A cette date, elle ne peut occuper qu'un exigu local, à la rue Khaldoun, soit une rue marginal déjà délaissé par les Européen qu'ils avaient investie vers 1860. Cinq années plus tard, le local est transféré au 2, boulevard national, soit le cœur économique et financé de la ville coloniale. Le chemin parcouru ainsi situe bien à son tour.

....culture... De plus, l'Association est présidé par un grand juriste, un avoué, de renom en mesure et bien la défendre à tout moment.

1936, l'année du Congrès musulman est aussi sur le plan local, une date mémorable dans les annales scientifiques de l'entre-deux guerre, tant au niveau deu Maghreb qu'au niveau de l'orientalisme européen. C'est l'année du 2^{ème} Congrès de la Fédération des sociétés savantes de l'Afrique du Nord. Les

congressistes s'en penchent bien sur le passé glorieux du Maghreb, mais en restant pratiquement indifférents au sort des sociétés. Seul, un jeune tlemcenien sortira des sentiers, battus et tenter de faire revivre les cours royale Allusion nette à la souveraineté.

Or, c'est peu avant cette manifestation scientifique, tenue à Tlemcen que l'acquisition du terrain de Dar El Hadith se concrétise. C'est aussi à la même période que certaines voix se lèveront pour proclamer vainement pour discréditer la langue du Coran. Il en est ainsi de certains décrets et déclarations au Conseil d'Etat! De bévues, de l'irréalisme²³.

Aussi, l'acte d'acquisition de 1936 est plein d'enseignements. C'est une référence historique et un document indispensable pour l'analyse d'un chapitre-clé d'une étape décisive accomplie par une société pour affirmer et réaffirmer son attachement, son identité culturelle. Après tant d'épreuves et de sacrifices durant out un siècle, une étape ultime est tranchée.

²³ Notamment l'arrêté du Conseil d'Etat de 1935 et le décret Chautemps de 1938, déclarant la langue arabe langue étrangère.

قصيدة في ذكرى الستين عاما لتأسيس مدرسة دار الحديث
بتلمسان 27 سبتمبر 1937-1797

تحية "دار الحديث" لمحمد العيد آل خليفة بمناسبة افتتاح مدرسة
دار الحديث

في يوم الاثنين 21 رجب 1356 هـ / 1937/09/27 م

أحيي	قرونا فاحتمى بهما هما حميا دَمَارِك 2	وَدَارًا تَسْتِظِلُّ بِهَا الدِّيَارُ 5
الذَّمَار	العوالي	
فَعَادَ عَلَيْكَ بِالْأَمْنِ وَحَاصِرَ تَرْكُكِ الْإِسْبَانَ 2	أَرِيضًا زَهْرُ الْآدَبِ وَرَ 6	نَضْرُ 6
الْحَصَارِ حِينًا	النُّضَارُ	
لَنَا فِي الْقَلْبِ لَوْ يُجْدِي مَضُوءًا لَمْ يَتْرَكُوا غَيْرَ 2	بِسَاحَتِهِ وَتَسْتَقِ الْمِهَارُ 7	وَمِيدُ 7
أَدْكَارٍ أَدْكَارٍ		
بِنَاءً لَا يَهْدِدُهُ انْهِيارُ فَعَلَّ لَبْنِيهِمْ ابْنُوا مِنْ 2	وَأُفُقًا مَا لِأَنْجُمِهِ مَعَارُ 8	وَعَيْنُ 8
جَدِيدٍ		
كَطَاقَاتٍ يَرْفُ بِهَا وَضَعُ لَبْنِي تَلْمَسَانَ 2	خِيَارٌ فِي مَعُونَتِهِمْ خِيَارُ 9	أَحْيِي 9
الْعِمَارِ التَّحَايَا		
وَأَدْنَى مَا جَزَيْتَ بِهِ وَوَرَفَّ بَنِي تَلْمَسَانَ 3	وَمَا كَالْعَلْمِ لِلْبِلْدَانِ جَارُ 0	تَلْمَسَانَ 0
اعْتَبَارًا اعْتَبَارًا		
وَسَارَتْ قَبْلَمَا سَارَ لَقَدْ حَنَّتْ جَوَانِحُهَا إِلَيْهِمْ 3	يَحِقُّ بِهِ لِأَهْلِيهَا الْفَخَارُ 1	لَقَدْ 1
الْقَطَارِ تَاجًا		
وإِشْرَافٌ وَشَوْقٌ أَتَيْنَاهُمْ ضُحَى وَلَهُمْ 3	وَكَانَ لَهُ ذِيُوعٌ وَاشْتِهَارُ 3	فَكَانَ 3

	2	حبور	وانتظار
نقد	3	بمجدِ كالرَّكاز بها يُثار	كمثل الرِّند يكفنه وسرنا بينهم جَنبا لجنبِ
	3		السُّوار
وفي	3	بديع الصُّنع مصقولٌ	رجالٌ كلُّ دعوتهم يُكبر حولنا منهم جِهارةً
	4	منار	جهار
به	3	وآدابٍ ليجلُّوها الصُّغار	عليها من ملاحمهم ألم تر صورة الأجداد
	5		إطار
فيا	3	وعمرِك كلُّه أبدأ نهارُ	بدارٍ نحوها اشتدَّ فقف تر غرسهم بدارًا
	6		البدار
ويا	3	مهمَّات لنا ومنى كبار	وفيها ابنُ الصِّلاحِ له بها دار الحديث لها
	7	تلقي	يُنادي
وفي	3	وعلم لا يليق بها ادِّخار	لنا انتشرت معارفه وليس ابن الصِّلاح
	8		سوى بشيرٍ الكثار
تلمس	3	فأختك في السَّماء لها	وجند الله ليس له حمى أكنافها لله جند
	9	مدار	انكسار
ضع	4	فقرن الشمس ليس له	عليها الطَّهر يبدو وجاءتها المواكب
	0	خمار	خاشعاتٍ والوقار
تلمس	4	من الآثار جَلَّها الغبار	ومن وحي السَّماء لها ومن وحي السَّماء لها
	1		منار دليلٌ
ويُفيا	4	نمتها عبقریات غِزارُ	فليس سوى السَّماء لها ونحن بنو السَّماء لها

	2	أُنسِبُونَا	منار
وما كالدين في الدنيا	4	تخذنا الدين في الدنيا	
شعار	3	ونار	
وتنقيبٌ وكشفٌ وابتكار	4	لنا للعلم تنقيبٌ وحفزٌ	
ازدهار	4	ازدهار	
عليها نضرةٌ ولها	4	لنا ازدهرت حضاراتٌ ففي	
اخضرارٌ	5	كبار	
شهيآتٌ فأرضنا الثمار	4	تفشى العدل وانتشر وفي	
	6	اليسار	
من البركات ديماتٌ	4	سما مازيغٌ واستعلى وفي	
ثرار	7	نزار	
لهم ما طاب في الخلد	4	وحولك ضمّ شملهما عليك	
القرار	8	الجوار	
		قرا	

Références bibliographiques

- Ageron Ch. (1968): *Les Algériens musulmans et la France*, Paris, PUF, 2 t.
- Baghli M. (2009): Les 900 mes Traouih de la Grande Mosquée de Tlemcen, *Le quotidien d'Oran*, 7 septembre, p 7.
- Collin N. (1898): L'œuvre des hôpitaux indigènes en Algérie, *Revue Politique parlementaire*, janv., p 103-110.
- Kahina Tani Z (2003): Iténaire d'une jeune tlemcénienne de l'Allé des Sources d'El Kalaâ, Tlemcen, *Ecolymet*, Actes de la journée du 15 mai 2003, p. 97-82.
- Mérad A. (1967): *Le réformisme musulman en Algérie de 1925 à 1940*, Paris, Mouton, 472 p.
- Mérad Boudia Kh. (2009): *De Pomaria au Jardin de France, témoignage*, Alger, Thala Edition, 278 p.
- Merzouk Kh. (2003): *L'itinéraire du Cheikh Si Mohammed Merzouk (1884-1939)*, le réveil du nationalisme culturel 1908-1939, récits et témoignages, Tlemcen, éd. Brixia Daoud, 219 p.
- Richard P. (1940): *L'artisanat indigène en Oranie*, Oran, Fouques, 26.
- Sari Dj. (1987): *50^{ème} anniversaire de Dar El Hadith, un symbole de résistance*, El Moujdahid, 16 septembre, p 7.

- Sari Dj. (2006 a): *l'intelligentsia algérienne, 1850-1950*, Alger, éd. ANEP, 320 p.
- Stora B. Daoud Z. (1995): Ferhat Abbas, *une autre Algérie*, Alger, éd. Kasbah, 425.
- Tocqueville A. (1962): *Œuvres complètes*, Paris.
- Turin Y. (1971): *Affrontements culturels, médecines, religions, enseignements, 1830-1880*, Paris, F. Maspéro, 440 p.